

العمل للقاء ا



◀- وعي الإنسان لمسؤوليته أمام ا:

يريد ا تعالى للإنسان أن يحسم أمره في تقرير مصيره فيما ينتظره في المستقبل عندما يلتقي في الآخرة مع حساب ا، ويريد للإنسان أن يكون واقعياً في وعيه لمسؤوليته، ولكلِّ ما يعانيه في حركة المسؤولية. ولذلك يقول ا تبارك وتعالى: (مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّا يُجَاهِدُ لِنِفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَهُ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) (العنكبوت/ 5-6)، فإذا كان الإنسان يرجو لقاء ربه، لأنه يؤمن با واليوم الآخر، ويرى أن لكلِّ مخلوقٍ أجلاً لا بدَّ أن يبلغه صاحبه فيما قدَّره له، فإنَّ عليه أن يستعدَّ ويتهيأ لأجله، ويوحى لنفسه على الدوام عندما يُصبح ويُمسي بأنَّ أجل ا لآت. فالأجل قد يأتيه صباحاً أو مساءً، وقد يأتيه نائماً أو في حالة اليقظة. ولذا، عليه ألا ينسى أجله، لأنه إذا نسيه أطال أمله ونسيَّ عمله. والإنسان الواعي لمسؤولياته أمام ا، يعرف أنَّ هناك حساباً ينتظره، وأنَّ هناك عقاباً أو ثواباً سيناله، أمّا الإنسان الذي ينسى الموت والآخرة، فإنَّه يترك العمل ويفكّر في العمر والأمد الطويل، ويؤخّر عمل اليوم إلى الغد، وعمل الغد إلى ما بعد الغد.

وعلى هذا (مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ) في أيِّ وقت (فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ) وهذا الأجل يضيع وسيأتي فيما قدَّره ا (وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) الذي يسمع كلَّ كلماتكم (الْعَلِيمُ) الذي يعلم كلَّ نياتكم وأعمالكم وعلاقاتكم. وإذا كان سبحانه يسمع كلَّ شيء، فكيف تتكلمون بكلامٍ لا يرضاه؟

وإذا كان سبحانه يعلم كلَّ شيء، فكيف تفكّرون فيما لا يرضاه وتعملون ما لا يرضاه؟

(مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ) فعليه أن يستعدَّ للقاءه لأنَّ أجل ا سيأتي، ومَنْ كان يعرف أنَّ هو السميع العليم، عليه أن يتحفّظ في أفكاره وأعماله وخطواته وعلاقاته، ولا يُقدم على

أيّ أمر لا يُرضي الله سبحانه وتعالى (وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّا زَمُّمَاهُ لِنُدْفَسِهِ)، فمن جاهد في عمله ونشاطه وفكره وعبادته، فإنّ عليه ألا يمتدّن ربّه في ذلك، بل عليه أن يعتبر أنّ عمله الذي يعملُه، فإنّ مردوده لنفسه وعلى نفسه (فَمَنْ أَهْتَدَى فَلِنُدْفَسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَلِنَزَمَاهُ يَضِلُّ عِلَالِيَّهَا وَمَا أَزْنَتْ عِلَالِيَّيْهِمْ بِرُوكِيلٍ) (الزمر/ 41)، فإذا جاهدت في الخير والعبادة والعلم فإنّك تجاهد لنفسك، وحاول أن تزداد مما تعمل لتزيد حصة نفسك من ثواب الله ورضوانه (إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ)، فالله لا يحتاج إلى صلاتكم لتزيد صلاتكم في ملكه، ولا إلى حجّكم وصومكم ليرفع ذلك من شأنه، ولا إلى زكّاتكم وخمّسكم ليزيد ذلك في ماله. فالله تعالى خلقكم وخلق ما تُرزقون وما تنتجون، فكلّكم لله وكلّ ما عندكم لله، فما حاجة الله بكلّ ما تقدّمونه؟ فالإنسان ما يعمل من خير أو شرّ يراه، فهو يجني خيره ويجني شرّه، وهو يحمل على ظهره جذّته حيث يصنعها من خلال عمله، ويحمل على ظهره ناره من خلال ما يُحرق به حياته بسبب العمل الذي يُقدم عليه.

- ثواب الله ورضاه:

وينطلق الخطاب القرآني بالبشرى (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْكَفِرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُنَّ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ) (العنكبوت/ 7)، أيّها الناس آمنوا بالله، فالإيمان بالله هو حقيقة الحقائق، واعملوا صالحاً، فإنّ العمل الصالح هو معنى الحياة ومعنى المسؤولية فيها، فإذا آمنتم بالله كما يجب الإيمان، وعملتُم الصالحات كما يجب، أتعرفون ما الجائزة (لَنُدْكَفِرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ) ويغفرها لكم باعتبار أنّ العمل الصالح يطرد السيئ، وزيادة على ذلك (وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُنَّ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ) ليضاعف لهم أجرهم وثوابهم (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا) (الأنعام/ 160). وعلى هذا، فلماذا يزهد الإنسان في ثواب الله، ويرغب في ثواب عباد الله؟ وما قيمة ثواب العباد؟ إنّ ثواب الله هو الذي يخلد، فلماذا يرغب الإنسان في الفاني ويترك الخالد الباقي؟

ويوجّه القرآن الكريم الإنسان لرعاية والديه (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (العنكبوت/ 8)، فأحسن لوالديك كما أحسنّا لك وبرّهما كما برّا بك، وأعطهما الحنان والعاطفة والرعاية، كما أعطيك ذلك كلّهُ.. ولكن هناك مسألة، وهي أنّ هناك فرقاً بين الإحسان وبين الطاعة، فالطاعة هي، فإذا أمرك والدك بطاعة الله فأطعها بطاعة الله، أو أمرك بما لا معصية لله فيه، فلك أن تُحسن إليهما، وتقدّم لهما ما لا يجب عليك شخصياً وليس محرّماً. ولكن إذا أمرك بأن تعصي الله لتفعل محرّماً هنا ومحرّماً هناك، أو أن تعيّن ظالماً وتؤيّدّه وتخذل مؤمناً وتحاربه، أو (وَلَا يَنْ جَاهِدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) لتنتقل للإشراك بالله، بحيث تطيع ظالماً أو كافراً بمعصية الله، أو تطيع طاعة في الإضرار بعباد الله (فَلَا تُطِعْهُمَا) لأنّه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. وإنّك عندما تقول: يا رضا الله ورضا الوالدين، فبشرط أن يكون رضا الوالدين في رضا الله، أمّا إذا كان رضا الوالدين في معصية الله، فإنّ عليك أن تُغضب والديك، خصوصاً إذا كانا يتأذيان من صلاتك وصومك وحجّتك وبذلّك ما عليك من حقّ الله، لأنّ القضية هي أن يرضى الله، والأمر عندما يدور بين الوالدين وبين الله، فالأولى أن يرضى، لأنّه ربنا وربّ والدينا.

(إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) ستقف أيّها الإنسان أمام الله، وكذلك سيقف والداك وستُجزى بعملك، ولن يدافع عنك أبواك ولن تدافع عنهما (لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلَىٰ ذُو جَنَازٍ عَنْ ذِي جَنَازٍ وَالِدَهُ شَيْئًا) (لقمان/ 33)، وعند الوقوف بين يديّ الله، فإنّه سبحانه يقدّم للناس كلّ ما فعلوه من سرّ أو جهر، لأنّه مطلع على كلّ ما يعملون (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ) (العنكبوت/ 9)، إذا أطعتم الله وعملتُم صالحاً فسيدخلكم الله في مجتمع الصالحين، ونحن نعرف أنّ مجتمع الصالحين هو مجتمع أهل الجنة، فأبّية جائزة تنالها في نهاية المطاف على كلّ أتعابك وصبرك وإيمانك، أعظم من جائزة الدخول إلى الجنة، التي عرضها عرض السماوات والأرض أعدت للمتقّين؟

- يهربون عند الشدّة ويعودون عند المكاسب:

ويحدّثنا ﷻ تعالى عن بعض الناس الذين يدخلون مجتمع المؤمنين، ولكنهم من الذين لم يثبت الإيمان في قلوبهم، فيقول سبحانه: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةً لِلنَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنَّ جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ) (العنكبوت/ 10)، وهذا النوع من الناس بمجرد أن يُؤذى في جنب ﷻ بسبب إيمانه، أو يُضغط عليه ويُحاصر، يجعل فتنة الناس كعذاب ﷻ، ويحاول أن يعطّم البلاء الذي وقع فيه بسبب محاصرة الناس، كما لو أن عذاب ﷻ وقع عليه، وكما أنّه يهرب من عذاب ﷻ، فإنّه يهرب من عذاب الناس، فيقدّم التنازلات ويعصي ﷻ.. وذلك ككثير من الذين ينطلقون في خطّ الإيمان، فإذا ما ابتدلوا بسبب انتمائهم للإيمان، وحدثت بعض الخسارات في أوضاعهم، فإنهم يتركون الإيمان جانبا ليحافظوا على هذه الأوضاع. وهؤلاء ينحازون ويلجأون إلى المؤمنين من جديد في اللحظة التي يكتب فيها ﷻ تعالى النصر للمؤمنين على كلّ الذين حاصروهم وسبّوا لهم المتاعب (وَلَئِنَّ جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ) أتى وقت الانتصارت، وعندها (لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ) في وقت الشدة والمواجهة يتنكّرون للمؤمنين، أمّا في وقت النصر فيعلنون انتماءهم إلى خطّ الإيمان.. ولكن على من يضحكون؟ (أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ) ﷻ تعالى يعرف المنافق تماما، ويعرف من يحمل ازدواجية في شخصيته ومواقفه، ومن يعيش في قلبه خالص الإيمان، ومن هو مُكدّر الإيمان..

وإذا انطلت حيلُ هذا المنافق على الناس، واستترت عنهم خفاياه وأسراره، فإنّها لن تنطلي على ﷻ تعالى (وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُُنَافِقِينَ) (العنكبوت/ 11)، فهو تعالى يميّز ويعرف حقائق الأشخاص، ولذلك يعلمُ المنافقَ حتى ولو ظهر بأوضح صور الإيمان، ويعلم ﷻ المؤمن حتى لو لم يظهر من أمر إيمانه شيءٌ للناس.

ويقف الكافرون للمؤمنين بالمرصاد ليزلزلوا إيمانهم (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلَنَحْمِلَ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِن خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّا كَاذِبُونَ) (العنكبوت/ 12)، امشوا في طريقنا، ونحن نحمل على ظهورنا كلّ خطاياكم وذنوبكم وسيئاتكم، أنتم خائفون من يوم القيامة، نحن يوم القيامة.. هذه كلماتٌ سيتحملون مسؤولياتها، هم أضعف من أن يحملوا خطاياهم، وأضعف من أن يهربوا من عذاب ﷻ (إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) يحاولون إغراءكم وإيقاعكم في الخطيئة، فإذا وقعتم في الخطيئة ووقفتم أمام حساب المسؤولية هربوا من كلّ ما تعهدوا به، فهم لا يقدرّون أن يضمنوا أنفسهم، فكيف يمكن أن يضمنوكم؟

ولأنّهم يسبّرون في طريق الضلال (وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ) وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ) (العنكبوت/ 13)، فعلى أيّ أساس تحمّلتم المسؤولية، ومن أنتم حتى تضمنوا على ﷻ؟ ففضية العقاب والثواب بيد ﷻ تعالى وحده. وما هي قيمتكم وموقعكم عنده سبحانه، وكيف لكم أن تكفلوا الناس أمام ﷻ؟

وهذه المسألة يجب أن نعيها جيّداً في حياتنا، وذلك عندما نريد أن ننطلق في أيّ موقع، فيأتينا إنسانٌ لا يملك أيّ أساسٍ للثقة، وأيّ موقعٍ للاطمئنان ليدعونا للسير معه مدعياً تحمّله لكافة المسؤوليات، علينا أن نرفض ذلك، لأننا مسؤولون عن أنفسنا أمام ﷻ يوم القيامة فيما أخذنا به.. إننا لا نستطيع الدفاع عن أنفسنا يوم القيامة إلّا إذا كنّا نملك الحجة أمام ﷻ، ولذلك، لنوفّر على أنفسنا ذلّ يوم القيامة عندما لا نستطيع جواباً عند السؤال. ►

المصدر: كتاب من عرفان القرآن